قـصـص وحـكـايـا مـن التـّراث

حكايات لا تموت

مَنْ مِنَّا لَا يَذْكُرُ تِلْكَ الْحِكَايَاتِ الْقَدِيمَةَ الَّتِي سَمِعَهَا مِنْ أَجْدَادِهِ قَبْلَ النَّوْمِ؟ كَانَتْ قَصَصُ وَحَكَايَا التُّرَاثِ رَفِيقَ طُفُولَتِنَا الْأَجْمَلَ، وَمَنْبَعَ خَيَالَاتِنَا الْوَاسِعَةِ الَّتِي حَلَّقْنَا فِيهَا بِلَا حُدُودٍ، مُتَخَيِّلِينَ أَنْفُسَنَا أَبْطَالًا. فَهِيَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ قَصَصٍ عَابِرَةٍ، بَلْ هِيَ كُنُوزٌ ثَمِينَةٌ تَحْمِلُ خُلَاصَةَ الْحِكْمَةِ وَالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَوَارَثَتْهَا الْأَجْيَالُ مِنْ جِيلٍ إِلَى آخَرَ. وَمِفْتَاحٌ يُفْتَحُ أَبْوَابَ المَعْرِفَةِ وَرَجَاحَةِ العَقْلِ. تصْقِلُ هَذِهِ الْحِكَايَاتُ خِبْرَاتِنَا فِي الْحَيَاةِ وَالتَّمَعُّنُ فِيهَا وَالأَخْذُ بِعِبَرِهَا يَجْنِبُنَا الوُقُوعَ فِي كَثِيرٍ مِنَ المَشَاكِلِ، وَالتَّدَبُّرُ فِي ذَكَاءِ أَبْطَالِهَا وَحِيَلِهِمْ يُعَلِّمُنَا أَنَّ الحَيَاةَ لَا تُعْطِي أَسْرَارَهَا إِلَّا لِمَنْ يُحْسِنُ التَّفْكِيرَ.

فَمَنْ مِنَّا لَمْ يَتَعَلَّمْ مِنْ جُحَا ذَكَاءَهُ وَسُرْعَةَ بَدِيهَتِهِ، وَمِنْ أَشْعَبَ عُقُوبَةَ الطَّمَعِ وَآثَارَهُ السَّيِّئَةَ، وَ من بينوكيو عاقبة الكذب، من حَدِيدْوَان الشُّجَاعة في مواجهة الأخطار. وَكَمْ أَثْرَتْ مَخِيلَتَنَا قِصَصُ الحَيَوَانِ التي لَهَا دُرُوسٌ لَا تُنْسَى؛ مِثْلَ حِكْمَةِ الْحَمَامَةِ الْمُطَوَّقَةِ وَتَعَاوُنِهَا، وَوَفَاءِ الْكَلْبِ لِصَاحِبِهِ، وَشَجَاعَةِ الْأَسَدِ. وَغَبَاءِ الغُرَابِ.

هَذِهِ الْقَصَصُ الْخَالِدَةُ عَاشَتْ مَعَنَا أيضا فِي برَامِجَ تِلْفَزِيُونِيَّةٍ مُحَبَّبَةٍ مِثْلَ "كَانَ يَا مَا كَانَ"، ومُغَامَرَاتِ السِّنْدِبَادِ الْبَحْرِيِّ وَ"الأَمِيرَة شَهْرَزَاد"، وَ"كَلِيلَة وَدِمْنَة."

وَالْيَوْمَ، يَجِبُ أَنْ نَسْأَلَ أَنْفُسَنَا: مَا هُوَ الْإِرْثُ الْأَجْمَلُ الَّذِي سَنَتْرُكُهُ لِأَجْيَالِنَا الْقَادِمَةِ؟ هَلْ سَيَجِدُونَ فِي قَصَصِنَا الْحِكْمَةَ وَالنُّضْجَ وذَكَائَنَا وَرَجَاحَة عُقُولِنَا، أَمْ سَيَذْكُرُونَ بَلَادَتَنَا وَتَقْصِيرَنَا؟ الْقَرَارُ بِأَيْدِينَا الْيَوْمَ، لِنَصْنَعَ قِصَصًا جَمِيلَةً تُحْكَى فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

فِراسة ثعلب

تَظَاهَرَ الأَسَدُ يومًا بِأَنَّهُ قَدْ كَبِرَ وَوَهَنَ عَظْمُهُ، وَأَنَّ المَرَضَ القاسِي قَدْ بَلَغَ مِنهُ شَأْوًا بَعِيدًا، فَلَجَأَ إلى حِيلَةٍ ماكِرَةٍ ادَّعَى فِيها طَلَبَ الرَّحْمَةِ وَالغُفْرَانِ، سَائِلًا حَيَوَانَاتِ الغابَةِ أَنْ يُرْسِلَ كُلُّ نَوعٍ مِنْهَا وفدًا لِيُوَدِّعَهُ وَيُواسِيَه، وَلِيَعْتَرِفَ الأَسَدُ أَمَامَهُ بِماضِيهِ الشَّرِسِ، لَعَلَّ نَفْسَهُ تَسْتَرِيحُ تَكْفِيرًا عَنْ أَعْمَالِهِ السَّيِّئَةِ فِي عُمُرٍ طَوِيلٍ قَضَاهُ شَرًّا وَفَتْكًا وَسَفْكًا لِلدِّمَاءِ.

وَبِالفِعْلِ، تَجاوَبَتِ الحَيَوَانَاتُ مَعَ هذِهِ المُبادَرَةِ الغَرِيبَةِ، وَأَخَذَتْ تُرْسِلُ وُفُودَها الوَاحِدَ تِلْوَ الآخَرِ، مُلَبِّيَةً رَغْبَةَ مَلِكِ الغابَةِ وَمُحاوِلَةً إِرَاحَةَ نَفْسِهِ القَلِقَةِ المُضْطَرِبَةِ... إِلَّا مُوفَدَ الثَّعَالِبِ، فَلَمْ يَذْهَبْ.

وَلَمَّا سُئِلَتِ الثَّعَالِبُ عَنِ السَّبَبِ، قَالَتْ بِصَوْتٍ يَغْمُرُهُ الثِّقَةُ وَالفِطْنَةُ: إِنِّي رَاقَبْتُ الطَّرِيقَ إِلى عَرِينِ الأَسَدِ، فَوَجَدْتُ أَنَّ آثَارَ أَقْدَامِ الوُفُودِ الذَّاهِبَةِ إِلَيْهِ كَانَتْ كُلُّهَا تَأْخُذُ اتِّجَاهًا وَاحِدًا، اتِّجَاهَ الدُّخُولِ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَظْهَرْ أَبَدًا أَيُّ أَثَرٍ عَلَى تُرَابِ الطَّرِيقِ لأَقْدَامٍ عَائِدَةٍ...

لِذَلِكَ امْتَنَعْتُ عَنْ إِرْسَالِ موفدِي، مُدْرِكَةً بِحِكْمَتِي وَحِنْكَتِي المُتَأَصِّلَةِ، أَنَّهُ مَا مِنْ مُوفَدٍ ذَهَبَ لِزِيَارَةِ الأَسَدِ إِلَّا وَقَدْ هَلَكَ فِي جَوْفِهِ، وَأَنَّ الثَّعَالِبَ مِنَ الآثَارِ تَفْهَمُ، وَمِنَ الحِيَلِ تَحْتَرِفُ، وَمِنَ المَكَائِدِ تَحْذَرُ.